سادة الخفاء

تاريخ المخابرات العالمية من الحضارات القديمة إلى الحرب السيبرانية

⚔️ الجاسوسية • الاستخبارات • الأسرار الكبرى ⚔️

من روما القديمة إلى الـ CIA والـ KGB
ومن الحرب الباردة إلى الفضاء الرقمي

الطبعة الأولى
2025

Neda Alshraah

إهداء

إلى كل من عاش في الظل ليحمي من يعيش في الضوء...

إلى كل جاسوس لن يُعرف اسمه، ولن تُروى قصته

وإلى التاريخ الحقيقي الذي لم يُكتب بعد

مقدمة: في عالم الظلال

منذ فجر التاريخ، فهم الحكام والملوك والأباطرة حقيقة واحدة لا تتغير: المعرفة هي القوة. ومن يعلم ما لا يعلمه خصمه، يحكم العالم من وراء ستار. هذه الحقيقة البسيطة هي التي أفرزت ما نعرفه اليوم بـ"الاستخبارات" — ذلك الفن القديم المتجدد الذي شكّل مصائر الأمم وغير مجرى الحضارات.

هذا الكتاب رحلة في أعماق التاريخ السري للبشرية. رحلة تبدأ من روما القديمة، حيث كان الأباطرة يرسلون عيونهم في كل ركن من أركان الإمبراطورية، وتمر بالخلافة الإسلامية والصين القديمة وممالك أوروبا في العصور الوسطى، ثم تصل إلى أجهزة الاستخبارات الحديثة التي صنعت التاريخ وغيرته في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

ستتعرف في هذه الصفحات على أسرار الـ CIA وكيف أدارت انقلابات وأطاحت بحكومات منتخبة. ستعيش مع عملاء الـ KGB السوفيتي الذين تسللوا إلى أعلى مواقع الحكومة الأمريكية. ستقرأ عن الموساد الإسرائيلي وعملياته التي هزّت العالم. وستصل أخيراً إلى عصرنا — عصر الحرب السيبرانية، حيث أصبح الفضاء الإلكتروني ساحة المعركة الجديدة التي لا يُقتل فيها جنود بالرصاص، بل تُسرق فيها أسرار دول بنقرة على لوحة مفاتيح.

◆ ملاحظة المؤلف

جميع الأحداث والعمليات والشخصيات المذكورة في هذا الكتاب موثقة من مصادر تاريخية معتمدة، أو من وثائق رُفعت عنها السرية. بعض التفاصيل قد تُحذف لأسباب تتعلق بالأمن القومي للدول المعنية.

فهرس المحتويات

— الباب الأول: فجر الاستخبارات — الحضارات القديمة —

الفصل الأول: جواسيس روما القديمة وإمبراطوريتها الاستخباراتية



جنود الفيالق الرومانية — العمود الفقري لإمبراطورية المعلومات

١ - ١ الإمبراطورية لا ترى بعيون أغسطس وحده

لم تكن روما مجرد قوة عسكرية. كانت إمبراطورية مبنية على المعلومات. منذ أيام الجمهورية الرومانية الأولى، أدرك القادة الرومان أن الانتصار في الحروب يبدأ قبل أن تصطدم السيوف، في غرف الاجتماعات السرية، وعبر شبكات المخبرين الممتدة من بريطانيا إلى بلاد فارس.

كان الرومان روّاد الاستخبارات في العالم القديم، وإن لم يسموها بهذا الاسم. طوّروا أنظمة متكاملة لجمع المعلومات، وتحليلها، وتوظيفها في صنع السياسات والحروب. كانوا يعرفون ما يفكر فيه أعداؤهم قبل أن ينفذوا أفكارهم.

١ - ٢ الـ Frumentarii: الجيش الخفي

كانوا يُعرفون رسمياً بـ"جامعي الحبوب"، لكنهم في الواقع كانوا أول جهاز استخباراتي منظم في التاريخ. الـ Frumentarii — الجواسيس الرومان — أنشأهم الإمبراطور هادريان في القرن الثاني الميلادي، ليكون لديه عيون وآذان في كل مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية الشاسعة.

كانت مهامهم تتجاوز جمع المعلومات العسكرية البسيطة. كانوا يتجسسون على الحكام المحليين، ويكشفون المؤامرات، ويراقبون الانفصاليين، ويتتبعون حركة الجيوش المعادية. وكانوا يتنكرون في زي تجار، أو مسافرين، أو حتى جنود عاديين، في تكتيك لم يتغير جوهره حتى اليوم.

◆ وثيقة تاريخية نادرة

وصف المؤرخ الروماني سيتونيوس الإمبراطور أغسطس بأنه 'لا ينام حتى يعرف ما دار في أبعد مقاطعات إمبراطوريته ذلك اليوم'. وقد طور نظاماً للبريد السريع يسمى Cursus Publicus، كان يُستخدم رسمياً لنقل الرسائل الرسمية، لكنه في الواقع كان شبكة استخباراتية متكاملة.

١ - ٣ ثورة يوليوس قيصر في التشفير

قبل ألفي عام من اختراع أجهزة التشفير الحديثة، طور يوليوس قيصر واحدة من أوائل طرق التشفير في التاريخ. ما نعرفه اليوم بـ"شفرة قيصر" كانت بسيطة في مبدئها: إزاحة كل حرف في الرسالة بعدد ثابت من المواضع في الأبجدية. فكلمة "Roma" تصبح "Urpd" إذا كانت الإزاحة خمسة مواضع.

لكن عبقرية قيصر لم تكن في الشفرة نفسها، بل في إدراكه أن أمن المعلومات هو عصب الحرب. كان يرفض إرسال أي رسالة عسكرية مهمة دون تشفيرها، حتى بين قواته الموثوقة. وكان يغير مفتاح الشفرة بانتظام لتجنب اختراقها.

١ - ٤ سقوط روما: حين تخفق الاستخبارات

ومع ذلك، سقطت روما. وفي سقوطها درس لا يُنسى: لا جهاز استخبارات يحمي دولة تتفسخ من الداخل. في القرن الرابع الميلادي، كان الـ Agentes in Rebus — ورثة الـ Frumentarii — فاسدين وضعفاء ومنشغلين بخدمة الصراعات الداخلية على العروش أكثر من مواجهة التهديدات الخارجية. وحين جاء القوط الغربيون عام 410 ميلادي، لم يكن أحد يعرف بهم حتى دقوا أبواب روما.

الجهاز	المهام	الحقبة الزمنية
Frumentarii	جمع المعلومات ومراقبة المقاطعات	القرن الثاني الميلادي
Speculatores	الاستطلاع العسكري والتجسس الميداني	الجمهورية الرومانية
Exploratores	استطلاع الأراضي المعادية	القرن الأول الميلادي
Agentes in Rebus	استخبارات الدولة والأمن الداخلي	القرن الرابع الميلادي

الفصل الثاني: المخابرات في الشرق — الصين والفرس والإسلام



مخطوطة فن الحرب لسون تزو — ٥٠٠ ق.م — أقدم دليل استخباراتي في التاريخ

٢ - ١ سون تزو والاستخبارات كفلسفة حرب

في القرن الخامس قبل الميلاد، كتب الجنرال الصيني سون تزو كتابه الخالد "فن الحرب"، متضمناً ما يُعدّ اليوم الدليل التأسيسي للعمل الاستخباراتي. خصص سون تزو فصلاً كاملاً من فصوله الثلاثة عشر للحديث عن الجواسيس، مصنّفاً إياهم إلى خمسة أنواع لا يزال علماء الاستخبارات يدرسونها حتى اليوم.

◆ أنواع الجواسيس عند سون تزو

١ - جواسيس الريف: سكان منطقة العدو يُستخدمون للاستطلاع. ٢ - جواسيس الداخل: مسؤولو العدو الفاسدون. ٣ - الجواسيس المعكوسون: جواسيس العدو يُستقطبون لصالحنا. ٤ - جواسيس الموت: يُطعمون بمعلومات مزيفة ليموتوا وهم يحملونها. ٥ - جواسيس الحياة: يعودون بالمعلومات. قال سون تزو: 'من يستخدم الجواسيس الخمسة معاً يسيطر على الكون.'

٢ - ٢ الإمبراطورية الفارسية وشبكة العيون الملكية

طور الأخمينيون — الفرس القدماء — نظاماً استخباراتياً مبتكراً أسموه "عيون الملك وآذانه". كان مسؤولون يتجولون في الأقاليم المختلفة بصلاحيات مطلقة للتفتيش والتحقيق، وكانوا يرفعون تقاريرهم مباشرة إلى الملك

الكبير متجاوزين الحكام المحليين. كان هذا النظام فعّالاً لدرجة أنه جعل من المستحيل على أي حاكم إقليمي أن يطور نزعات انفصالية دون أن يعلم الملك بها.

كما طور الفرس الأخمينيون شبكة طرق ملكية بلغ طولها 2700 كيلومتر، كانت تستخدم ظاهرياً للتجارة والاتصال الحكومي، لكنها في جوهرها كانت شبكة استخباراتية تتيح نقل المعلومات الحساسة بسرعة مذهلة.

٢ - ٣ الاستخبارات في الحضارة الإسلامية

بلغت الاستخبارات في الدولة الإسلامية ذروتها في عهد الخلفاء العباسيين. كانت "دار البريد" ليست مجرد مرفق بريدي، بل شبكة استخباراتية متكاملة. كان مسؤولو البريد في الأقاليم يرفعون تقارير دورية عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مناطقهم، كما كانوا يراقبون مكاتبات الحكام المحليين ومدى ولائهم للخليفة.

اشتُهر هارون الرشيد بتجواله متنكراً في شوارع بغداد — وهو ما يبدو حكايات أسطورية في ألف ليلة وليلة — لكن المؤرخين يؤكدون أن هذا التقليد كان له أساس حقيقي. كان الخليفة أو ممثلوه يتنكرون لجمع معلومات مباشرة عن أوضاع الرعية وكفاءة المسؤولين.

◆ الحشاشون: أول منظمة استخباراتية دينية

في القرن الحادي عشر الميلادي، أسس حسن الصباح في قلعة ألموت بإيران ما يمكن وصفه بأنه أول منظمة استخباراتية دينية في التاريخ. كان 'الحشاشون' يتسللون إلى البلاطات الملكية والمعسكرات العسكرية بصبر وإتقان، وكانوا يضربون أهدافهم بدقة جراحية أثارت الرعب في قلوب الحكام من القاهرة إلى بغداد إلى القسطنطينية.

الفصل الثالث: الجاسوسية في العصور الوسطى والدول الأوروبية

٣ - ١ مملكة فينيسيا: جمهورية الجواسيس

لم تكن البندقية — فينيسيا — مجرد قوة تجارية. كانت أول دولة في التاريخ تُؤسّس جهازاً استخباراتياً مستقلاً بتشريع رسمي. في عام 1310، أسس مجلس العشرة — هيئة حكومية نخبوية — ما يُعدّ أول جهاز استخباراتي دولة في الغرب الحديث.

كانت فينيسيا تُلزم سفراءها المنتشرين في عواصم العالم بإعداد تقارير شاملة دورية تُسمى "الريلاتسيوني" تغطي كل شيء: الاقتصاد، والسياسة، وشخصية الحكام، وأوضاع الجيوش، وحتى المزاج العام للشعب. كانت هذه التقارير تُحفظ في أرشيف سري لا يطلع عليه إلا كبار المسؤولين.

٣ - ٢ إليزابيث الأولى والاستخبارات التي أنقذت إنجلترا

حين اعتلت إليزابيث الأولى عرش إنجلترا عام 1558، ورثت مملكة تحاصرها الأعداء من كل جانب: إسبانيا كاثوليكية متربصة في الغرب، وفرنسا في الشمال، ومتآمرون كاثوليك داخلياً يريدون إعادة إنجلترا إلى حضن الكنيسة الرومانية. مواجهة هذه التهديدات لم تكن بالسيوف وحدها — بل بالمعلومات.

اختارت إليزابيث لهذه المهمة رجلاً استثنائياً: السير فرانسيس والسينغهام، الذي بنى على مدى عشرين عاماً شبكة تجسس لا مثيل لها في أوروبا. بلغ عدد عملائه في أوروبا أكثر من خمسمائة جاسوس، من البرتغال إلى بولندا، ومن أسواق الجبن الهولندية إلى القصور الإسبانية.

◆ عملية كشف مؤامرة بابينغتون 1586

كانت ماري ملكة الإسكتلنديين تتآمر سراً لاغتيال إليزابيث والاستيلاء على العرش. كانت تتبادل الرسائل المشفرة مع مؤيديها عبر براميل البيرة. لكن والسينغهام كان يعرف بالأمر منذ البداية — وظل يراقب ويجمع الأدلة حتى اكتملت شبكة المؤامرة بأكملها ثم أوقفها دفعة واحدة. أُعدمت ماري عام 1587، وانهارت المؤامرة الكبرى.

٣ - ٣ التشفير في أوروبا القرون الوسطى

مع تطور الاستخبارات الأوروبية، تطور التشفير معها. في القرن الخامس عشر، ابتكر الإيطالي ليون باتيستا ألبيرتي أول آلة تشفير في التاريخ — قرص تشفير يسمح بتغيير المفتاح بشكل متكرر، مما أدخل مفهوم "التشفير متعدد الأبجديات" الذي أربك كاسري الشفرات لقرون.

وفي القرن السادس عشر، طور علماء الكنيسة والدبلوماسيون الأوروبيون "الشفرة الطويلة" — أكواداً معقدة تستبدل الكلمات بأرقام أو رموز، وتضيف طبقات متعددة من التشفير. كانت هذه الشفرات أحياناً تحتاج إلى سنوات لكسرها، وكانت المكاتب المتخصصة بكسر الشفرات — "غرف الأسود" — قد أصبحت جزءاً دائماً من الحكومات الأوروبية.

— الباب الثاني: أوروبا تُرسي قواعد الاستخبارات الحديثة —

الفصل الرابع: بريطانيا وميلاد أقدم أجهزة الاستخبارات في العالم

٤ - ١ من والسينغهام إلى MI6

الخط الاستخباراتي البريطاني لا ينقطع: من شبكة والسينغهام في القرن السادس عشر، إلى المكتب السري في القرن الثامن عشر، إلى MI5 وMI6 في القرن العشرين — بريطانيا هي الدولة الوحيدة التي تمتلك تقليداً استخباراتياً متصلاً يمتد لأربعة قرون ونصف.

في عام 1909، وفي خضم القلق المتصاعد من الطموحات العسكرية الألمانية، أسست الحكومة البريطانية "مكتب الخدمة السرية" الذي انقسم لاحقاً إلى جهازين: المخابرات الداخلية (MI5) للتعامل مع التهديدات على الأراضي البريطانية، والمخابرات الخارجية (MI6 أو SIS) للعمل خارج المملكة المتحدة.

٤ - ٢ الحرب الكبرى الأولى وإثبات قيمة الاستخبارات

جاءت الحرب العالمية الأولى لتُثبت أن الاستخبارات ليست ترفاً بل ضرورة حيوية. وأبرز مثال على ذلك هو قضية برقية زيمرمان عام 1917 — واحدة من أكثر نقاط التحول درامية في تاريخ الاستخبارات.

◆ برقية زيمرمان 1917: حين أدى التشفير المكسور لدخول أمريكا الحرب

في يناير 1917، أرسل وزير خارجية ألمانيا آرثر زيمرمان برقية سرية إلى السفير الألماني في المكسيك، يطلب منه اقتراح تحالف على المكسيك في حال دخلت أمريكا الحرب: مساعدة ألمانيا في مقابل استعادة المكسيك لولايات تكساس ونيو مكسيكو وأريزونا! اعترضت الاستخبارات البريطانية (غرفة 40) البرقية وفككت شفرتها. حين سرّبت بريطانيا محتواها لأمريكا، كان ذلك آخر القش الذي حرّك الرأي العام الأمريكي نحو الحرب.

٤ - ٣ بلتشلي بارك: ثورة في تاريخ الاستخبارات

في الحرب العالمية الثانية، بنت بريطانيا ما يُعدّ أعظم مؤسسة استخباراتية في تاريخ الإنسانية: مجمع بلتشلي بارك. في هذا المبنى المتواضع شمال غرب لندن، تجمع أكثر من عشرة آلاف عالم وعالمة ومحلل ومبرمج وخبير لغوي، كلٌّ في تخصصه، لأداء مهمة واحدة: كسر شفرات آلة إنيغما الألمانية.

الآلة الألمانية إنيغما كانت تُعدّ غير قابلة للكسر. كانت تولّد مليارات المليارات من الاحتمالات المختلفة لكل رسالة، وكانت الإعدادات تتغير يومياً. لكن عقل واحد — آلان تورينغ — غيّر كل شيء. طور تورينغ آلته الحاسبة الميكانيكية "بومب" التي تقلصت المهمة من المستحيل إلى الممكن، ثم فككت فريقه شفرات آلاف الرسائل الألمانية يومياً طوال سنوات الحرب.

قدّر المؤرخون أن كسر الشفرة الألمانية قصّر الحرب بسنتين إلى أربع سنوات، وأنقذ ملايين الأرواح. لكن آلان تورينغ — بطل هذه المعركة — دفع ثمناً مروّعاً: حين انتهت الحرب، لاحقته الحكومة البريطانية بتهمة الشذوذ الجنسي، وخضع لعلاج كيميائي قسري، وانتهى به الأمر منتحراً عام 1954. لم تعتذر بريطانيا عن هذا الظلم رسمياً إلا عام 2009.

٤ - ٤ MI6 في عصر ما بعد الحرب

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، واجه MI6 تهديداً من نوع مختلف: التغلغل السوفيتي. وكانت القضية الأشهر هي قضية "رجال كامبريدج الخمسة" — مجموعة من أبرز العقول البريطانية جرى تجنيدهم للعمل لصالح موسكو وهم طلاب في جامعة كامبريدج في الثلاثينيات، ثم تسللوا إلى أعلى المواقع في المخابرات والحكومة البريطانية.

◆ رجال كامبريدج الخمسة: أعمق اختراق في تاريخ الاستخبارات

كيم فيلبي (وصل لأن يكون رئيس قسم في MI6)، وغاي بورغيس (دبلوماسي في وزارة الخارجية)، ودونالد ماكلين (وصل لأسرار النووي الغربي)، وأنتوني بلونت (مسؤول في MI5)، وجون كيرنكروس (عمل في بلتشلي بارك نفسه). نقلوا للاتحاد السوفيتي كميات هائلة من أسرار الغرب لعقود. لم يُكتشف أمرهم كاملاً إلا في الستينيات.

الفصل الخامس: فرنسا ونابليون — الاستخبارات في خدمة الإمبراطورية

٥ - ١ جوزيف فوشيه: مخترع الشرطة السياسية

لم يكن جوزيف فوشيه جنرالاً أو رجل دين — كان بيروقراطياً بارعاً يعرف أن القوة الحقيقية لا تأتي من السيف بل من الملف. وحين عيّنه نابليون وزيراً للشرطة عام 1799، حوّل فوشيه الوزارة إلى أول جهاز استخبارات سياسية داخلي منظم في التاريخ الحديث.

بنى فوشيه شبكة من المخبرين داخل فرنسا نفسها لم تستثن أحداً: الصحفيون والشعراء والفلاسفة والوزراء وحتى أسرة نابليون — كل هؤلاء كانوا تحت عيون رجال فوشيه. وكان يرفع إلى نابليون كل صباح تقريراً مفصلاً عن أحداث الليلة الماضية في باريس وسائر الأقاليم.

الأمر المثير للسخرية هو أن فوشيه نفسه كان جاسوساً على نابليون، يتفاوض سراً مع الأعداء لضمان موقعه بعد أي تحول في السلطة. لم يُكتشف أمره إلا حين عثر نابليون على مراسلاته مع الإنجليز عام 1810، فطرده من منصبه.

٥ - ٢ نابليون والاستخبارات العسكرية

على الصعيد العسكري، كان نابليون من أوائل القادة الذين نظّموا الاستخبارات العسكرية بشكل رسمي. أسس "مكتب الإحصاء السري" الذي كان يجمع معلومات عن القوات المعادية وتحركاتها وتحصيناتها قبل كل معركة كبرى.

وكان نابليون يطبق مبادئ سون تزو دون أن يعرفها بالضرورة: "اعرف عدوك كما تعرف نفسك". قبل معركة أوسترليتز 1805 — معركته العسكرية الأعظم — كان يعرف تماماً الترتيب القتالي للجيشين الروسي والنمساوي، ومواطن قوتهما وضعفهما، مما مكّنه من إيهامهما بنقطة ضعف وهمية ثم سحقهما.

> **◆ سقوط نابليون: حين تخذله الاستخبارات**
>
> *كان انهيار نابليون في روسيا عام 1812 إخفاقاً استخباراتياً مركباً: أخطأ في تقدير المسافات والتضاريس، وأخفق في فهم عقلية المقاومة الروسية لأسلوب الأرض المحروقة، وبالغ في تقدير نتائج انتصاره في بورودينو. الحرب ليست فقط معركة أجساد — بل معركة معلومات.*

الفصل السادس: ألمانيا وصعود أجهزة الاستخبارات الأكثر تطوراً

٦ - ١ بسمارك وإمبراطورية المعلومات

حين وحّد أوتو فون بسمارك ألمانيا عام 1871، كان يعلم أن الحفاظ على الوحدة يستلزم سيطرة تامة على المعلومات. بنى بسمارك شبكة من الدبلوماسيين والعملاء السريين المنتشرين في كل عاصمة أوروبية، وأسس ما يمكن وصفه بـ"الخدمة المركزية للمعلومات" — أول جهاز استخبارات ألماني منظم.

ما يميز النهج الألماني عن غيره هو التركيز الشديد على الاستخبارات العسكرية الدقيقة. طور الجيش الألماني نظام "الأركان العامة" الذي يشمل ضباطاً متخصصين في جمع المعلومات من كل الجبهات وتحليلها. هذا النموذج صار لاحقاً النموذج الذي يُقتدى به في جيوش العالم.

٦ - ٢ أبوير: استخبارات الرايخ

في الحرب العالمية الأولى والثانية، كان الأبوير — جهاز الاستخبارات العسكرية الألمانية — قوة يخشاها الجميع. لكن هذا الجهاز تحوّل في عهد هتلر إلى مسرح للتنافس والمؤامرات الداخلية.

أدار الأبوير اللواء فيلهلم كناريس، الذي كان ظاهرياً موالياً للنازية لكنه سراً يدير شبكة من المقاومين. كان كناريس يُحبط عمليات SS ويحمي يهوداً ومعارضين من الملاحقة — حتى جاء يوم اكتُشف أمره بعد محاولة اغتيال هتلر 1944، فأُعدم في أبريل 1945 قبل أسابيع من نهاية الحرب.

٦ - ٣ هيئة فيلن: الاستخبارات الألمانية في الحرب الباردة

بعد الحرب، بنت ألمانيا الغربية جهاز استخباراتها الجديد على قاعدة غريبة: الضباط النازيون السابقون. اللواء راينهارد غيلن، الذي كان رئيس الاستخبارات العسكرية الألمانية ضد الاتحاد السوفيتي، عرض على الأمريكيين صفقة لا تُرفض: شبكة عملائه في الأراضي السوفيتية مقابل الحرية والتمويل. قبل الأمريكيون، وأصبحت "منظمة غيلن" سلف الـ BND — جهاز الاستخبارات الألماني حتى اليوم.

> **◆ الـ Stasi: جهاز المراقبة الأشمل في التاريخ**
>
> *في ألمانيا الشرقية، أسست الاستخبارات السرية (Stasi) نظاماً للمراقبة لم يُسبق له مثيل. في دولة عدد سكانها 17 مليون نسمة، استخدم الـ Stasi ما بين 90,000 و170,000 ضابط نظامي، بالإضافة إلى ما يزيد على نصف مليون مخبر غير رسمي من بين السكان أنفسهم. كان الجيران يتجسسون على جيرانهم، والأزواج على زوجاتهم، والطلاب على أساتذتهم. سقط هذا الكيان الرهيب بسقوط جدار برلين عام 1989.*

— الباب الثالث: الحربان العالميتان والاستخبارات في أوج نشاطها —

الفصل السابع: الجاسوسية في الحرب العالمية الأولى

٧ - ١ أوروبا تشتعل والجواسيس يتحركون

لم تكن الحرب العالمية الأولى حرب خنادق فحسب — كانت أيضاً حرب ظلال ضارية. وللمرة الأولى في التاريخ، أدرك القادة العسكريون أن المعلومات قد تكون أشد فتكاً من المدفعية. أدت الاستخبارات أدواراً محورية في كل مسرح من مسارح العمليات.

٧ - ٢ ماتا هاري: الجاسوسة الأسطورة

لا يكتمل حديث عن استخبارات الحرب العالمية الأولى دون ذكر ماتا هاري — الراقصة الهولندية التي أصبحت رمزاً للجاسوسة الأنثوية في التاريخ. اسمها الحقيقي مارغريثا زيلي، ولدت في هولندا عام 1876، وأصبحت راقصة شهيرة في باريس قبل الحرب.

حين اندلعت الحرب، وجدت ماتا هاري نفسها في موقع مثالي: كانت تعرف ضباطاً في كلتا المعسكرين، وكانت تتنقل بحرية بين البلدان لأن هولندا كانت محايدة. جنّدها الألمان وأعطوها رمزاً: H-21. لكن الفرنسيين قبضوا عليها واعترضوا اتصالاتها. أُعدمت بالرصاص في أكتوبر 1917 أمام فرقة الإعدام الفرنسية.

◆ هل كانت ماتا هاري حقاً جاسوسة؟

أثار المؤرخون جدلاً واسعاً حول إدانة ماتا هاري. الوثائق التي رُفعت عنها السرية تُظهر أنها ربما كانت ذات اتصالات مزدوجة، لكن الأدلة على نقلها معلومات عسكرية حقيقية ظلت ضعيفة. بعض الباحثين يرون أنها كانت ضحية بحث الفرنسيين عن كبش فداء لتبرير انتكاساتهم العسكرية.

٧ - ٣ غرفة 40: حين تُحوّل الرياضيات مسار الحرب

في مبنى متواضع في قلب البحرية الملكية البريطانية، عمل فريق من علماء الرياضيات والمتخصصين في اللغات على مهمة غيّرت الحرب: كسر الشفرات الألمانية. أُطلق على هذه المجموعة اسم "غرفة 40"، وكانوا يعترضون يومياً مئات الرسائل الألمانية ويفكون شيفراتها.

كان أبرز نجاحاتهم كسر الشفرة الألمانية المعروفة بـ"المربع فيرنام"، واعتراض برقية زيمرمان الشهيرة التي غيّرت مسار الحرب بدخول أمريكا فيها.

الفصل الثامن: الحرب العالمية الثانية — ذروة الصراع الاستخباراتي



آلة إنيغما الألمانية — أعقد جهاز تشفير في تاريخ الحرب العالمية الثانية

٨ - ١ الحرب التي لم تحسمها الجيوش وحدها

الحرب العالمية الثانية كانت الاختبار الأعظم للاستخبارات في التاريخ. لأول مرة، شارك ملايين البشر في معارك الظل: شبكات المقاومة، والعملاء المزدوجون، وكاسرو الشفرات، ومديرو عمليات التضليل الكبرى — هؤلاء جميعاً رسموا خريطة انتصار الحلفاء إلى جانب الجنود في الخنادق.

٨ - ٢ عملية مينس ميت: أعظم عملية خداع في التاريخ

في ربيع 1943، كان الحلفاء يخططون لغزو صقلية كخطوة أولى نحو غزو أوروبا. لكن المشكلة كانت أن الألمان يتوقعون صقلية تماماً. الحل جاء من الاستخبارات البريطانية في واحدة من أجرأ عمليات الخداع في التاريخ: عملية مينس ميت.

حصل البريطانيون على جثة رجل مجهول الهوية، ألبسوه زي ضابط بريطاني رفيع وزودوه بوثائق مزيفة تشير إلى أن الغزو سيكون على اليونان وسردينيا — لا صقلية. ثم أطلقوا الجثة من غواصة قرب شواطئ إسبانيا. عثر الألمان على الوثائق وصدّقوها تماماً، فنقلوا فرقاً عسكرية من صقلية لتعزيز اليونان. حين نزل الحلفاء في صقلية، وجدوا دفاعات منخفضة.

◆ رجل لم يكن موجوداً

اتضح لاحقاً أن الجثة كانت لرجل اسمه غليندور مايكل، توفي بعد تناوله سماً للفئران. اعتُرف به رسمياً كبطل حرب وأُقيم له نصب تذكاري في إسبانيا في الستينيات. الكتاب الذي كُتب عنه لاحقاً حمل العنوان ذاته: 'الرجل الذي لم يكن موجوداً'.

٨ - ٣ عملية فورتيتيود: خداع هتلر بشأن نورماندي

إذا كانت عملية مينس ميت قد أنقذت صقلية، فإن عملية فورتيتيود أنقذت نورماندي والحرب بأسرها. حين كان الحلفاء يخططون لأكبر إنزال بحري في التاريخ، كان التحدي الأكبر هو إقناع الألمان بأن الغزو سيكون في منطقة باده كاليه في شمال فرنسا — لا في نورماندي.

أنشأت الاستخبارات البريطانية جيشاً وهمياً — مجموعة الجيش الأولى الأمريكية بقيادة الجنرال باتون — معززة بمعدات خزان مطاطية ومخازن وهمية ومنشآت لاسلكية ضخمة. صدّق الألمان الأمر تماماً. وحين نزل الحلفاء في نورماندي في 6 يونيو 1944، ظل هتلر لأسابيع يرفض إرسال الاحتياطي الألماني معتقداً أن نورماندي مجرد إلهاء والضربة الحقيقية ستكون في باده كاليه.

٨ - ٤ شبكة المقاومة والعملاء المزدوجون

كان نظام XX — نظام الجواسيس المزدوجين البريطاني — من أنجح عمليات الاستخبارات في التاريخ. نجح البريطانيون في اعتراض كل جاسوس ألماني أُرسل لبريطانيا، واستقطاب معظمهم للعمل ضد أسيادهم. وكان هؤلاء العملاء المزدوجون يُرسلون معلومات صحيحة أحياناً ومعلومات مضللة أحياناً أخرى، في خلطة مدروسة تجعل الألمان يصعب عليهم معرفة ما هو حقيقي وما هو زائف.

— الباب الرابع: الاتحاد السوفيتي والـ KGB — إمبراطورية الجاسوسية الحمراء —

الفصل التاسع: نشأة الاستخبارات السوفيتية من الثورة إلى ستالين

٩ - ١ الـ Cheka: المولود من رحم الثورة

بعد أسابيع قليلة من ثورة أكتوبر 1917، وتحديداً في 20 ديسمبر 1917، أصدر لينين مرسوماً بتأسيس "لجنة مكافحة الثورة المضادة والمخربين" — اختُصرت بـ"الشيكا". كانت هذه البداية الأولى لما سيصبح أشد أجهزة الاستخبارات رعباً في التاريخ.

قاد الشيكا فيليكس دزيرجينسكي — الرجل الذي يُقال إنه لم يبتسم قط. كان متعصباً للثورة بدرجة وصفها أقرب المقربين منه بالإيمان الديني. تحت قيادته، حوّلت الشيكا روسيا إلى دولة مراقبة شاملة قبل عقود من اختراع مصطلح "الدولة البوليسية".

٩ - ٢ NKVD وستالين: الإرهاب كأداة استخباراتية

حين تولى ستالين السلطة، حوّل الاستخبارات السوفيتية إلى أداة للسيطرة الشخصية المطلقة. تحت اسم NKVD، أشرف الجهاز على عمليات التطهير الكبرى في ثلاثينيات القرن العشرين، حيث اعتُقل ملايين الأشخاص وأُودع معظمهم في معسكرات العمل القسري "غولاغ"، وأُعدم مئات الآلاف منهم.

لكن الـ NKVD لم يكن مجرد أداة قمع داخلي — كان أيضاً جهازاً استخباراتياً خارجياً من الطراز الأول. تمكن من اختراق المشروع النووي الأمريكي، وشبكات الاستخبارات البريطانية، وأجهزة الدول الأوروبية. وطوّر أساليب في التجنيد والعمل السري لا تزال تُدرِّس في مدارس الاستخبارات حول العالم.

◆ حادثة اغتيال تروتسكي 1940

حين فرّ ليون تروتسكي من الاتحاد السوفيتي ولجأ إلى المكسيك، لم يشعر بالأمان. وكان محقاً في ذلك. أرسل ستالين عميلاً من NKVD، اسمه رامون ميركادر، الذي تسلل إلى دائرة تروتسكي المقربة عبر علاقة رومانسية مع إحدى سكرتيراته. في أغسطس 1940، استقبل تروتسكي ميركادر في مكتبه، فضربه هذا الأخير بفأس الجليد في رأسه. مات تروتسكي في اليوم التالي.

الفصل العاشر: الـ KGB — الجهاز الأشد رعباً في التاريخ



مبنى لوبيانكا في موسكو — المقر الرهيب للـ KGB السوفيتي

١٠ - ١ تأسيس الـ KGB

في عام 1954، بعد وفاة ستالين وإعدام رئيس المخابرات لافرينتي بيريا، أُعيد هيكلة الاستخبارات السوفيتية تحت اسم جديد: "لجنة أمن الدولة" — KGB. كان الهدف ظاهرياً إصلاح الجهاز وتقليص صلاحياته المطلقة، لكنه في الواقع بقي أحد أقوى أجهزة الاستخبارات في التاريخ.

في ذروة قوته، كان الـ KGB يضم أكثر من 480,000 موظف وضابط رسمي، فضلاً عن شبكة هائلة من المخبرين والعملاء داخل الاتحاد السوفيتي وحول العالم. وكان له صلاحيات تتجاوز ما يُتصور: اعتقال أي مواطن سوفيتي دون توجيه اتهام، ومراقبة كل المكالمات الهاتفية، وفتح كل الرسائل، والدخول إلى أي منزل أو مكتب.

١٠ - ٢ الـ KGB خارج الحدود: الذراع الطويلة لموسكو

لكن ما جعل الـ KGB استثنائياً حقاً هو قدرته على العمل خارج الاتحاد السوفيتي. كانت له شبكات عملاء في كل دولة ذات شأن، من واشنطن إلى لندن إلى طوكيو. وكان ماهراً بشكل خاص في تجنيد المثاليين الغربيين الذين آمنوا بالشيوعية كحل لمشاكل العالم.

من أبرز ما حققه الـ KGB في الغرب: اختراق المشروع النووي الأمريكي (مانهاتن) وتسريب أسرار القنبلة الذرية لموسكو، مما أتاح للاتحاد السوفيتي تطوير قنبلته الأولى عام 1949 بسرعة مذهلة جاوزت كل التوقعات الغربية.

الجدول الزمني للأجهزة الاستخباراتية السوفيتية

1917 Cheka: جهاز مكافحة الثورة المضادة
1922 GPU / OGPU: الشرطة السياسية السرية
1934 NKVD: مفوضية الداخلية الشعبية
1946 MGB / MVD: وزارة أمن الدولة
1954 KGB: لجنة أمن الدولة — أشهر الأجهزة
1991 FSB + SVR: الجهازان اللذان خلفا الـ KGB بعد تفكك الاتحاد السوفيتي

١٠ - ٣ فلاديمير بوتين: ابن الـ KGB الذي حكم روسيا

من أبرز المسارات المهنية التي أفرزها الـ KGB هو فلاديمير بوتين، الذي انضم إلى الجهاز عام 1975 وعمل جاسوساً في ألمانيا الشرقية حتى انهيار الاتحاد السوفيتي. عمل بوتين لاحقاً في الفضاء السياشي الروشي وأصبح رئيساً للـ FSB (خلف الـ KGB) قبل أن يصبح رئيساً لروسيا عام 2000 — مما يجعله الرئيس الوحيد في العالم الذي حكم دولة عظمى من قاعدة عمله الاستخباراتي.

— الباب الخامس: أمريكا والـ CIA — الوكالة التي أدارت العالم —

الفصل الحادي عشر: نشأة الـ OSS والـ CIA



مقر وكالة الاستخبارات المركزية CIA — لانغلي، فيرجينيا، الولايات المتحدة

١١ - ١ أمريكا تكتشف الاستخبارات

قبل الحرب العالمية الثانية، لم تكن أمريكا تمتلك جهاز استخبارات مركزياً حقيقياً. كانت الفلسفة الأمريكية التقليدية تنظر إلى أجهزة التجسس كشيء غير أمريكي وغير ديمقراطي — ربما لائق للملوك والدكتاتوريين، لكن ليس لجمهورية حرة.

الصحوة جاءت قسراً مع هجوم بيرل هاربر في ديسمبر 1941، وهو إخفاق استخباراتي مذهل أثبت أن غياب جهاز استخبارات مركزي قد يُكلّف أمريكا حرباً. بعد بيرل هاربر مباشرة، أصدر الرئيس روزفلت أمراً بتأسيس "مكتب الخدمات الاستراتيجية" — OSS — بقيادة الجنرال وليام دونوفان.

١١ - ٢ تأسيس الـ CIA 1947

في سبتمبر 1947، أصدر الرئيس ترومان قانون الأمن القومي الذي أسّس رسمياً "وكالة الاستخبارات المركزية" — CIA. جاءت الوكالة في خضم حالة توتر متصاعدة مع الاتحاد السوفيتي، وكان هدفها الأساسي المعلن جمع المعلومات الاستخباراتية وتحليلها وتقديمها للرئيس.

لكن ما لم يُعلَن عنه كان لا يقل أهمية: تفويض واسع للقيام بعمليات سرية حول العالم — تمويل أحزاب سياسية أجنبية، ودعم انقلابات عسكرية، وتصفية الخصوم، وبث الدعاية، وكل ما يخدم المصالح الأمريكية دون أن تكون واشنطن قادرة على الاعتراف بذلك.

◆ مبدأ الإنكار المعقول

طور ضباط الـ CIA مصطلح 'الإنكار المعقول' — المبدأ الذي يتيح للرئيس والحكومة الأمريكية نفي علمها بأي عملية سرية إذا كُشف عنها. كان هذا يعني في الممارسة أن الضباط الميدانيين كانوا يتصرفون أحياناً في مناطق قانونية وأخلاقية ضبابية للغاية، بل أن بعض العمليات كانت تُنفَّذ دون أن يعلم بها الرئيس نفسه بشكل واضح.

الفصل الثاني عشر: العمليات السرية والانقلابات والاغتيالات

١٢ - ١ إيران 1953: أول انقلاب تُديره الـ CIA

في أغسطس 1953، نفّذت الـ CIA والاستخبارات البريطانية MI6 معاً عملية أطاحت بأول حكومة ديمقراطية منتخبة في إيران. كان رئيس الوزراء محمد مصدّق قد أمم صناعة النفط الإيرانية التي كانت في أيدي بريطانية، فاعتُبر تهديداً للمصالح الغربية.

أُطلق على العملية اسم TPAJAX أمريكياً وOPERATION BOOT بريطانياً. دفعت الـ CIA ملايين الدولارات لزعماء القبائل والصحفيين ورجال الدين ورجال الشارع لإثارة أعمال الشغب ضد مصدّق. وفي النهاية، انقلب الجيش على الحكومة المنتخبة وأعاد الشاه رضا بهلوي إلى العرش.

العواقب الطويلة المدى كانت بالغة: الثورة الإيرانية عام 1979 كانت في جزء منها رد فعل على ذلك الانقلاب. والكراهية الشعبية لأمريكا في إيران التي لا تزال حاضرة حتى اليوم لها جذور في تلك الأحداث.

١٢ - ٢ غواتيمالا 1954 وتشيلي 1973

لم تكن إيران استثناء. في غواتيمالا عام 1954، دعمت الـ CIA انقلاباً أطاح بالرئيس خاكوبو أربينز الذي كان قد بدأ برنامجاً لإصلاح زراعي وزّع فيه أراضي كانت بحوزة شركة يونايتد فروت الأمريكية.

وفي تشيلي عام 1973، دعمت الـ CIA الانقلاب العسكري الذي أطاح بالرئيس الاشتراكي المنتخب ديمقراطياً سالفادور أليندي وأتى بالديكتاتور أوغستو بينوشيه. قُتل أليندي في قصر الرئاسة، وبدأت إحدى أشد الديكتاتوريات وحشية في تاريخ أمريكا اللاتينية.

◆ خطة فينيكس: البرنامج الأكثر إثارة للجدل في تاريخ الـ CIA

في حرب فيتنام، نفّذت الـ CIA 'برنامج فينيكس' لاستئصال البنية التحتية للمقاومة الفيتنامية في الجنوب. من 1968 إلى 1972، أُعدم أو سُجن أكثر من 20,000 شخص. أثار البرنامج جدلاً واسعاً حول حدود ما يمكن أن تفعله الاستخبارات باسم الأمن القومي، وأصبح نقطة تحول في النقاش الأمريكي حول صلاحيات الـ CIA.

١٢ - ٣ محاولات اغتيال كاسترو: الفشل الأكثر سخرية

لن تكتمل قصة العمليات السرية للـ CIA دون ذكر محاولات اغتيال الرئيس الكوبي فيدل كاسترو — التي باتت موضوع كتب وأفلام وسخرية لا تنقطع. وثّق المفتش العام للـ CIA عام 1967 ما لا يقل عن ثماني مخططات رسمية لاغتياله، من بينها: تسميم سيجاره بمواد مشعة، وإيصال أحذية مُعالجة بمادة تجعل شعره يتساقط، وتزويد حارسه الشخصي بقلم يحوي مادة تخترق دمه.

فشلت كل هذه المخططات. وعاش كاسترو حتى عام 2016 ليتفوق على عشرة رؤساء أمريكيين تعاقبوا في البيت الأبيض خلال فترة حكمه.

الفصل الثالث عشر: الـ NSA والفضاء والتجسس التكنولوجي

١٣ - ١ وكالة الأمن القومي: أضخم جهاز تنصت في التاريخ

في عام 1952، وقّع الرئيس ترومان مرسوماً سرياً — بعيداً عن الكونغرس ودون علم الرأي العام — أسّس بموجبه "وكالة الأمن القومي" NSA. كان هدفها الأصلي اعتراض الاتصالات الأجنبية وفك تشفيرها. لكن ما أصبحت عليه اليوم يتجاوز كل تصور.

تُشغّل الـ NSA مجمع مقرها في فورت ميد بولاية ماريلاند، الذي يمتد على مساحة تتجاوز ال 650 فداناً. تستهلك المنشأة كهرباء تكفي لإضاءة مدينة متوسطة الحجم. وكانت في ذروة عملها بعد 11 سبتمبر تعالج يومياً كميات من البيانات تُقدر بمليارات المليارات من الرسائل الإلكترونية والمكالمات الهاتفية.

١٣ - ٢ إيشلون: أذن العالم السرية

ظل وجود شبكة ECHELON سراً لعقود. وحين كُشف عنه في التسعينيات، صدم العالم: كانت أمريكا وبريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا — الدول المعروفة بـ"العيون الخمس" — تشغّل منذ الخمسينيات شبكة عالمية لاعتراض الاتصالات تشمل كل وسائل الاتصال الدولية: الأقمار الصناعية والكابلات البحرية وموجات الراديو.

◆ إدوارد سنودن والكشف الأعظم في تاريخ NSA

في يونيو 2013، قلب موظف استخبارات شاب اسمه إدوارد سنودن العالم رأساً على عقب. سرّب إلى الصحافة وثائق سرية بالغت في تفاصيلها الصادمة: برنامج PRISM الذي كان يجمع بيانات مباشرة من خوادم شركات مثل Google و Facebook و Apple، وبرامج اعتراض تطال حرفياً كل مستخدم للإنترنت على الكوكب. هرب سنودن إلى روسيا حيث حصل على إقامة دائمة. الجدل حول ما فعله — خيانة أم بطولة — لم ينته حتى اليوم.

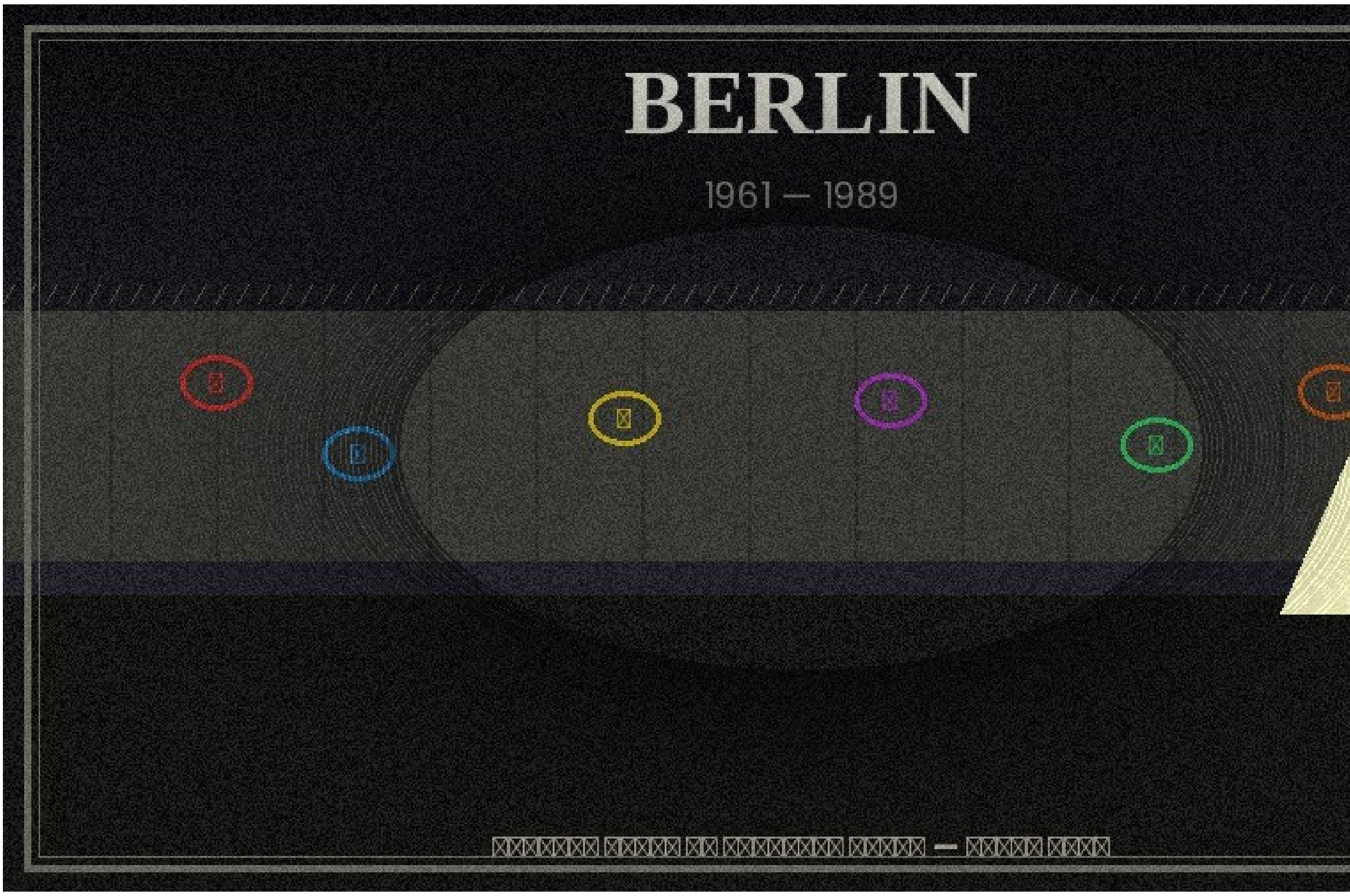
١٣ - ٣ التجسس الفضائي: الأقمار الصناعية تسرق الأسرار

في عام 1960، أطلقت أمريكا أول قمر صناعي تجسسي في التاريخ: CORONA. كان يدور في الفضاء ويلتقط صوراً بالغة الدقة لمواقع عسكرية سوفيتية، ثم يُسقط كبسولات بيانات تُلتقط من الجو فوق المحيط الهادئ.

جمع برنامج CORONA في عامه الأول من الصور الجوية أكثر مما جمعته كل الطلعات الاستطلاعية باليو-2 في الأعوام الخمسة السابقة مجتمعة. ومع تطور التقنية، أصبحت أقمار التجسس قادرة على قراءة لوحات السيارات من الفضاء، وتتبع حرارة المنشآت النووية، والتعرف على وجوه الأشخاص.

— الباب السادس: الحرب الباردة — الحرب في الظل —

الفصل الرابع عشر: سباق التجسس بين القوتين العظميين



جدار برلين — الرمز الأبرز للحرب الباردة وعاصمة الجواسيس ١٩٦١–١٩٨٩

١٤ - ١ عالم مقسوم وجواسيس في كل مكان

من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى سقوط جدار برلين عام 1989، عاش العالم في حالة حرب غريبة: طرفان يمتلكان أسلحة نووية كافية لتدمير الأرض مرات عدة، لكنهما يتجنبان المواجهة المباشرة ويصرفان طاقتهما في حرب الظل — في برلين وفيينا وسيؤول وهافانا وكابول وكل مدينة في العالم تقريباً.

كانت هذه الحرب تُخاض بالمعلومات والخداع والتأثير. كل سفارة أمريكية في العالم كانت تضم ضباط CIA. وكل سفارة سوفيتية كانت تضم ضباط KGB. وكان هؤلاء وأولئك يجنّدون العملاء، ويتبادلون المعلومات، ويديرون عمليات التضليل.

١٤ - ٢ برلين: عاصمة الجواسيس

كانت برلين المقسمة المدينة الأكثر كثافة بالجواسيس في تاريخ البشرية. في فترة الحرب الباردة، قُدّر عدد أجهزة الاستخبارات العاملة في المدينة المتوفية بأكثر من خمسين جهازاً من دول مختلفة، وعدد العملاء النشطين بمئات الآلاف.

الأسباب واضحة: برلين كانت نقطة التماس المباشر بين الكتلتين. الانتقال بين برلين الشرقية والغربية كان ممكناً قبل بناء الجدار عام 1961، مما جعلها قناة التبادل الرئيسية للعملاء والمعلومات والمنشقين.

◆ عملية نفق برلين 1955-1956

في واحدة من أجرأ عمليات الحرب الباردة، حفرت الـ CIA مع MI6 نفقاً طوله 450 متراً من برلين الغربية إلى أسفل خطوط الهاتف السوفيتية في الشرق، وظلوا يستمعون لمكالمات الجيش السوفيتي لأكثر من عام. المفاجأة: كان جورج بلاك — أحد ضباط MI6 المشاركين في التخطيط للعملية — جاسوساً سوفيتياً! وقد أبلغ موسكو بالخطة قبل تنفيذها، لكن السوفيت قرروا السماح بها لأن إيقافها فوراً كان سيكشف بلاك.

الفصل الخامس عشر: أشهر قضايا الجواسيس وعمليات التبادل

١٥ - ١ الجاسوس في قلب الناتو: أوليغ بنكوفسكي

في مطلع الستينيات، سلّم ضابط استخبارات سوفيتي نفسه للغرب طوعاً — وفي حقيبته أحد أثمن الكنوز الاستخباراتية في تاريخ الحرب الباردة. اسمه أوليغ بنكوفسكي، كان عقيداً في الاستخبارات العسكرية السوفيتية GRU، ومن الداخل الحميم لأجهزة الدفاع السوفيتية.

بين 1961 و1962، سلّم بنكوفسكي للـ CIA والـ MI6 أكثر من 5,500 وثيقة سرية عكست التفكير العسكري السوفيتي في أدق تفاصيله. وكان من أبرز ما قدمه: التفاصيل الكاملة للصواريخ السوفيتية المنصوبة في كوبا، مما أعطى الأمريكيين الفهم الكامل لأزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 وأتاح لهم التفاوض من موقع قوة.

اكتُشف أمر بنكوفسكي في خريف 1962. أُعدم رمياً بالرصاص عام 1963. يعتبره كثير من المحللين أثمن جاسوس فرد في تاريخ الحرب الباردة.

١٥ - ٢ جسر التجسس: تبادل الجواسيس

كان جسر غلينيكه في برلين يُعرف بـ"جسر التجسس" — المكان الذي كانت تجري فيه عمليات التبادل الرسمية بين الشرق والغرب. أشهرها كانت تبادل الطيار الأمريكي غاري باورز الذي أُسقطت طائرته اليو-2 فوق الأراضي السوفيتية عام 1960، مقابل الجاسوس السوفيتي رودولف أبل عام 1962.

◆ أبرز عمليات تبادل الجواسيس في التاريخ

1962: باورز مقابل أبل على جسر غلينيكه. 1986: نيكولاس دانيلوف مقابل غينادي زاخاروف. 2010: تبادل جماعي تاريخي — 4 جواسيس غربيين مقابل 10 جواسيس روس (بينهم أنا تشابمان الشهيرة). 2024: تبادل تاريخي بين روسيا والغرب يشمل إيفان غيرشكوفيتش الصحفي الأمريكي.

١٥ - ٣ روبرت هانسن: الجاسوس في قلب الـ FBI

في فبراير 2001، اعتقل الـ FBI أحد كبار ضباطه: روبرت هانسن. كان هانسن قد عمل جاسوساً للاتحاد السوفيتي ثم لروسيا على مدى 22 عاماً، مسلّماً خلالها بعضاً من أحساس أسرار أمريكا: أسماء عملاء غربيين في روسيا (أُعدم بعضهم)، وخطط طوارئ نووية، ومواقع مواقع استمرار الحكومة الأمريكية بعد ضربة نووية.

ما صدم الجميع: لم يطلب هانسن مبالغ ضخمة مقابل خدماته. المبلغ الإجمالي لم يتجاوز 1.4 مليون دولار على مدى عقدين. وحين سُئل عن دوافعه، كانت إجاباته غامضة ومتناقضة. قضى بقية حياته في سجن انفرادي صارم حتى وفاته عام 2023.

— الباب السابع: آسيا والشرق الأوسط — استخبارات في بيئات ملتهبة —

الفصل السادس عشر: الموساد الإسرائيلي — أسطورة الاستخبارات



الموساد — جهاز الاستخبارات الإسرائيلي · تأسس عام ١٩٤٩

١٦ - ١ نشأة الموساد

تأسس الموساد عام 1949، بعد عام واحد من إعلان قيام دولة إسرائيل. دولة صغيرة محاطة بأعداء يفوقونها عدداً وتسليحاً في بدايتها، وجدت في الاستخبارات بديلاً عن الحجم والقوة العسكرية. وعلى مدى العقود التالية، بنى الموساد سمعة لا مثيل لها: الجهاز الاستخباراتي الأكثر جرأة وفعالية بالنسبة لحجم الدولة التي يخدمها.

يعمل الموساد بميزانية وعدد موظفين يُعدّان سراً حتى الآن، لكن التقديرات تتراوح بين ألفين وسبعة آلاف موظف — أي أصغر بكثير من CIA وMI6 والـ KGB. لكن نجاحاته لا تتناسب مع حجمه.

١٦ - ٢ عملية اغتيال أدولف إيخمان 1960

في مايو 1960، خطف الموساد أدولف إيخمان — أحد مهندسي الهولوكوست — من شوارع بوينس آيريس في الأرجنتين. كان إيخمان قد هرب إلى أمريكا الجنوبية بهوية مزيفة بعد الحرب وعاش هناك لأكثر من عشر سنوات.

عملية الاختطاف كانت درس مثالي في الاستخبارات الميدانية: أثبت الموساد أن إيخمان هو المطلوب بعد مراقبة مضنية لأشهر، ثم قام عملاؤه بخطفه من الشارع وإيداعه منزلاً آمناً، وأخيراً تهريبه بهوية مزيفة على متن طائرة إلى إسرائيل. حُكم عليه بالإعدام وشُنق عام 1962 — الإعدام الوحيد في تاريخ إسرائيل حتى اليوم.

◆ عملية غضب الإله: رد الموساد على مجزرة ميونيخ

في أكتوبر 1972، بعد مجزرة الأولمبياد في ميونيخ التي قُتل فيها 11 رياضياً إسرائيلياً، أطلقت رئيسة الوزراء غولدا مئير عملية سرية: اغتيال كل مخططي العملية أينما كانوا. استمرت العملية سنوات وطالت عملاء الموساد معظم المستهدفين في أوروبا وبيروت. ومن أبرز أحداثها الخاطئة: اغتيال مغربي بريء في النرويج بعد الاشتباه بهويته، مما أحرج إسرائيل دولياً.

١٦ - ٣ اختراق العراق والسلاح النووي

في عام 1981، نفّذت إسرائيل عملية أوبرا — ضربة جوية دمّرت المفاعل النووي العراقي في التويثة. ما لم يُعرف في حينه هو أن هذه الضربة كانت مسبوقة بعملية استخباراتية مضنية دامت سنوات. تمكن الموساد من تجنيد عملاء داخل المشروع النووي العراقي، والحصول على مخططاته، وتحديد المواقع الحساسة.

وفي 2007، كررت إسرائيل العملية في سوريا، مدمّرةً مفاعلاً نووياً في دير الزور كانت كوريا الشمالية تساعد في بنائه. وقد حرصت إسرائيل على أن يبدو المكان وكأنه لم يكن شيئاً من الجو قبل الضربة بالغارات الجوية — وهو ما يعني أن ضباطها كانوا يمتلكون صوراً من الداخل.

الفصل السابع عشر: الصين والاستخبارات في آسيا

١٧ - ١ وزارة أمن الدولة الصينية: العملاق الصاحي

لفترة طويلة، استهانت الاستخبارات الغربية بقدرات الصين. كان التصور السائد أن الصين تعتمد على الكم — عدد الجواسيس — لا على الجودة. لكن الصورة تغيرت جذرياً في العقود الأخيرة.

وزارة أمن الدولة الصينية (MSS)، التي تأسست عام 1983، تطورت لتصبح من أكثر أجهزة الاستخبارات فاعلية في العالم. وما يميز الأسلوب الصيني هو مزج الاستخبارات التقليدية بالتجسس الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي على نطاق غير مسبوق.

١٧ - ٢ التجسس الاقتصادي: الحرب الصامتة

وصف مسؤولو الـ FBI أن الاستخبارات الصينية تشن ضد الولايات المتحدة "أكبر حملة تحويل ثروة في التاريخ" — سرقة الملكية الفكرية والأسرار التجارية والتقنية. وتقدر التقارير الأمريكية أن الخسائر الأمريكية من السرقة الصينية للأسرار الصناعية تبلغ مئات المليارات سنوياً.

ما يجعل الأسلوب الصيني فريداً هو التكامل بين الاستخبارات الرسمية والشركات الصينية والطلاب والأكاديميين في الخارج. بموجب القانون الصيني، يُلزَم أي مواطن صيني بالتعاون مع الأجهزة الأمنية عند الطلب، مما يجعل من كل صيني في الخارج عميلاً محتملاً.

◆ عملية قرصنة قواعد البيانات الأمريكية 2014-2015

في واحدة من أجرأ عمليات التجسس الرقمي في التاريخ، اخترق قراصنة صينيون مرتبطون بالحكومة قاعدة بيانات مكتب إدارة شؤون الموظفين الأمريكي. سرقوا بيانات 21 مليون موظف فيدرالي أمريكي حالي وسابق، بما في ذلك المعلومات البيومترية وتاريخ حياتهم الشخصية ومعلومات تصاريح أمنهم. كانت الكارثة الاستخباراتية الأكبر في تاريخ بيانات الحكومة الأمريكية.

— الباب الثامن: العصر الرقمي والحرب السيبرانية —

الفصل الثامن عشر: ثورة الإنترنت وتحول وجه الاستخبارات

١٨ - ١ من الميكروفيلم إلى الميغابايت

الاستخبارات في القرن العشرين كانت تعتمد على الميكروفيلم والورق المصفح وحقائب الدبلوماسيين. الجاسوس الكلاسيكي كان يلتقط صوراً لوثائق سرية ويهربها في عملية تستغرق أياماً أو أسابيع. كل ذلك تغيّر مع الثورة الرقمية.

منذ منتصف الثمانينيات، بدأ الفضاء الإلكتروني يُعيد تشكيل طبيعة الاستخبارات. وثيقة سرية يمكن الآن إرسالها في ثوانٍ. مبنى كامل يمكن مراقبته عبر كاميرا صغيرة متصلة بالشبكة. شبكة اتصالات دولة بأكملها يمكن اختراقها من مكتب في قارة أخرى.

١٨ - ٢ الإنترنت: نعمة ولعنة للاستخبارات

أعطى الإنترنت أجهزة الاستخبارات قدرات لا تُصدِّق: إمكانية الوصول لكميات هائلة من المعلومات المفتوحة، وأدوات للمراقبة الجماعية لم تكن موجودة، وقنوات للتواصل مع العملاء دون لقاء مادي.

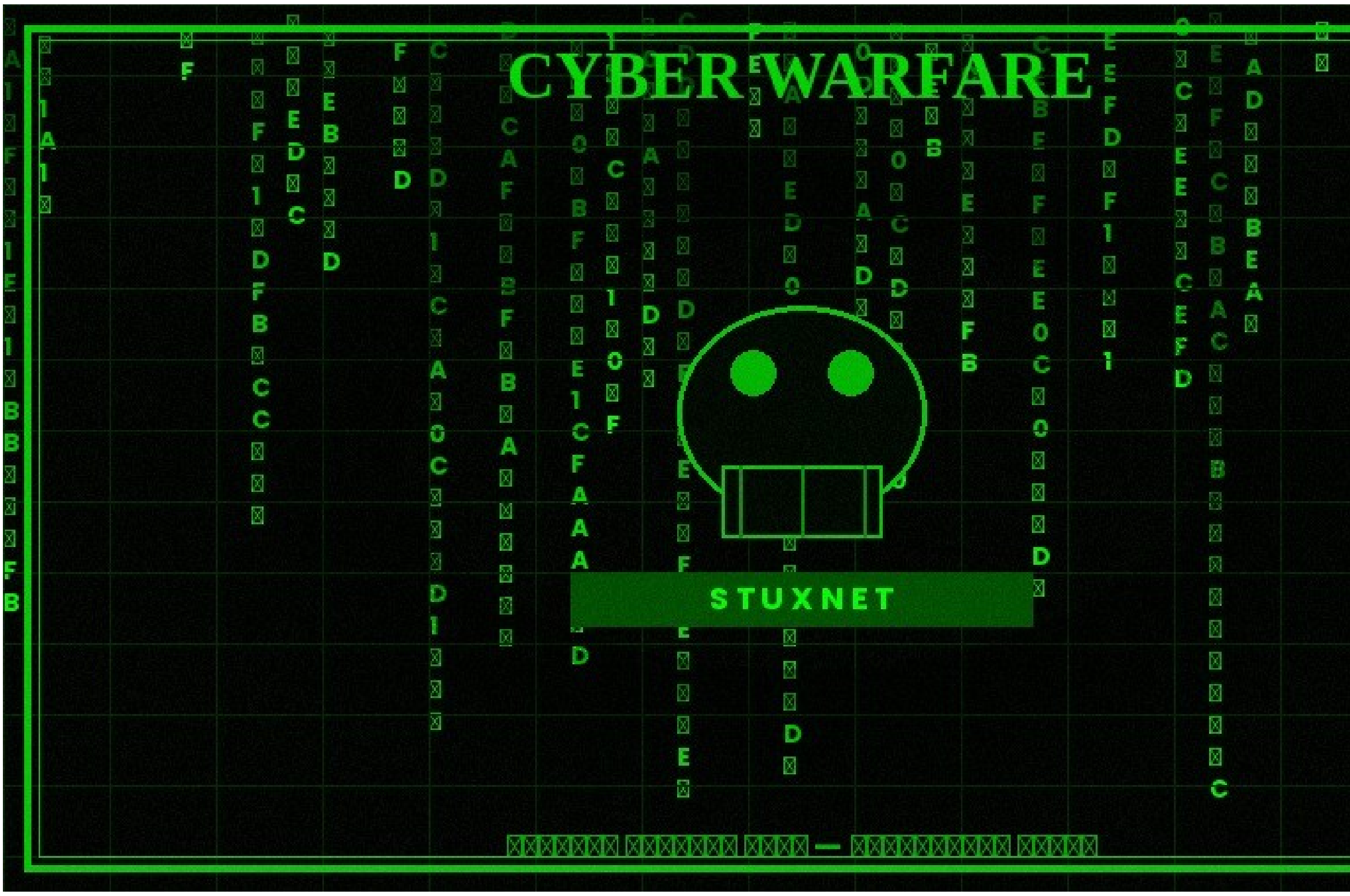
لكن الإنترنت في الوقت نفسه فتح ثغرات غير مسبوقة: أجهزة الاستخبارات نفسها أصبحت عرضة للاختراق، وأسرار الدول باتت تُسرق لا بطائرات التجسس بل بسطر واحد من الكود.

١٨ - ٣ وسائل التواصل الاجتماعي: الجاسوس الذي لا يعلم

الوسائل الاجتماعية حوّلت كل مستخدم إلى مصدر استخباراتي من حيث لا يدري. الصورة التي ينشرها الجندي من القاعدة العسكرية قد تكشف موقع القاعدة. تغريدة وزير عن اجتماعه "السري" تُعلن الحدث للعالم. وبيانات الموقع الجغرافي في كل صورة تُنشر هي خريطة تتبع تفصيلية لكل شخص يستخدم هاتفه.

> **◆ قضية القاعدة الروسية الخفية في سوريا**
>
> *عام 2018، كشف تطبيق Strava للرياضيين — الذي يتتبع مسارات الجري — عن مواقع عدد من القواعد العسكرية السرية حول العالم. كان الجنود الروس يستخدمون التطبيق خلال ممارستهم الرياضة، فظهرت مسارات جريهم على خريطة الحرارة — مكشوفةً للجميع على الإنترنت.*

الفصل التاسع عشر: الحرب السيبرانية — ساحة المعركة الجديدة



الحرب السيبرانية — الفضاء الرقمي ساحة المعركة الجديدة في القرن الحادي والعشرين

١٩ - ١ ستوكسنت: أول سلاح رقمي في التاريخ

في عام 2010، اكتشف خبراء أمن المعلومات فيروساً كمبيوترياً غير مسبوق في تعقيده. اسمه STUXNET. لم يكن فيروساً عادياً — كان سلاحاً رقمياً مصمماً لهدف واحد محدد: تدمير أجهزة الطرد المركزي في منشأة تخصيب اليورانيوم الإيرانية في نطنز.

الفيروس كان يُسرّع هذه الأجهزة حتى تتدمر ذاتياً، في حين يُظهر لأجهزة المراقبة الإيرانية قراءات طبيعية تماماً. تدمّر نحو ألف جهاز طرد مركزي قبل اكتشاف الأمر. التحقيقات أثبتت أن STUXNET كان من صنع تعاون أمريكي إسرائيلي — وأن هذه كانت أول عملية هجوم سيبراني تُحقق أضراراً مادية حقيقية في العالم.

◆ ما هي الحرب السيبرانية؟

الحرب السيبرانية هي استخدام الفضاء الإلكتروني والشبكات الرقمية لشن هجمات تستهدف البنية التحتية للدولة أو أجهزتها أو مواطنيها، بهدف إضعاف القدرات العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية. وتشمل: اختراق الشبكات الحكومية، وتدمير البنية التحتية الحيوية (كالكهرباء والماء)، وسرقة الأسرار العسكرية والصناعية، وحملات التضليل على الإنترنت.

١٩ - ٢ هجوم الكهرباء على أوكرانيا 2015 و2016

في ديسمبر 2015، أصاب الظلام فجأة مئات الآلاف من المواطنين في غرب أوكرانيا. لم تكن عطلاً فنياً — كان هجوماً سيبرانياً نفّذه قراصنة روس تمكنوا من اختراق شبكة الكهرباء الأوكرانية وإيقافها عن بُعد. كان الأول من نوعه في التاريخ.

في ديسمبر 2016، تكرر الأمر بشكل أكثر تطوراً. ومثّلت هاتان الحادثتان تحولاً تاريخياً: للمرة الأولى، أصابت هجمات سيبرانية بنية تحتية حيوية وأوقعت ضحايا مدنيين بشكل مباشر.

١٩ - ٣ هجمات على الانتخابات: الديمقراطية في مرمى النيران

في انتخابات 2016 الأمريكية، تدخلت روسيا عبر عدة مسارات: اختراق الحزب الديمقراطي وتسريب الوثائق الضارة بهيلاري كلينتون عبر ويكيليكس، وشن حملات تضليل ضخمة عبر منصات التواصل الاجتماعي استهدفت بث الانقسام في المجتمع الأمريكي.

الكشف جاء مذهلاً في تفاصيله: أنفقت وكالة أبحاث الإنترنت الروسية ملايين الدولارات على إعلانات فيسبوك استهدفت جماعات أمريكية محددة بدقة ديموغرافية متناهية، وأدارت مئات الحسابات المزيفة التي اشترك فيها الملايين دون أن يعلموا أنهم يتفاعلون مع عملاء روس.

١٩ - ٤ هجوم سولارويندز: الاختراق الكوني

في ديسمبر 2020، كُشف عن واحدة من أضخم عمليات التجسس السيبراني في التاريخ. كانت مجموعة قراصنة روسية قد اخترقت شركة SolarWinds الأمريكية لبرمجيات إدارة الشبكات، وأضافت باباً خلفياً إلى التحديث الذي بعثته الشركة لزبائنها — وكان هؤلاء الزبائن يشملون معظم الوكالات الحكومية الأمريكية الكبرى: وزارة الدفاع، والخزانة، وإدارة الطاقة النووية، والـ CIA نفسها.

تمكن القراصنة من البقاء محتجبين في هذه الشبكات لمدة تسعة أشهر يسرقون ما يشاؤون. حجم ما سُرق لا يزال غير معروف بالكامل.

الفصل العشرون: الذكاء الاصطناعي ومستقبل الاستخبارات

٢٠ - ١ الذكاء الاصطناعي يُعيد رسم خريطة الاستخبارات

الثورة التالية في الاستخبارات ليست قادمة — هي هنا. الذكاء الاصطناعي يُعيد تشكيل كل جانب من جوانب العمل الاستخباراتي: من جمع المعلومات وتحليلها، إلى التعرف على الوجوه وتتبع الأفراد، إلى التنبؤ بالتهديدات قبل وقوعها.

أجهزة الاستخبارات اليوم تُغرق في بحر من البيانات: مليارات الرسائل الإلكترونية، وتريليونات الاتصالات الهاتفية، ومليارات الصور من كاميرات المراقبة وأقمار التجسس. البشر وحدهم لا يستطيعون معالجة هذا الكم. لكن الذكاء الاصطناعي يستطيع.

٢٠ - ٢ التعرف على الوجوه: نهاية الخصوصية

تستخدم الصين اليوم أكبر شبكة كاميرات مراقبة بالتعرف على الوجوه في العالم — تقدر بأكثر من 700 مليون كاميرا على مستوى البلاد. يمكن لهذا النظام تحديد هوية أي مواطن صيني في أي مكان في غضون ثوانٍ. ويُستخدم هذا النظام ليس فقط للأمن العام بل للمراقبة السياسية.

الغرب ليس بعيداً: برامج التعرف على الوجوه تُستخدم في لندن ونيويورك وأمستردام، وإن كان استخدامها محاطاً بضوابط قانونية أكثر. لكن الحد الفاصل بين الأمن والمراقبة الشاملة يتراجع يوماً بعد يوم.

◆ تقنية Palantir والاستخبارات المستقبلية

تُعدّ شركة Palantir Technologies — المدعومة من CIA منذ تأسيسها — نموذجاً للمستقبل. برامجها تجمع كميات هائلة من البيانات المتشتتة — معاملات بنكية، وسجلات سفر، واتصالات، وبيانات تواصل اجتماعي — وتربطها في خريطة متكاملة تكشف الروابط الخفية بين الأشخاص والأحداث. تستخدمها الـ CIA والجيش الأمريكي وعشرات الأجهزة الأمنية حول العالم.

٢٠ - ٣ الـ Deepfake والتضليل في عصر الذكاء الاصطناعي

تكنولوجيا الـ Deepfake — توليد صور وفيديوهات مزيفة بالغة الواقعية — تفتح فصلاً جديداً في تاريخ التضليل الاستخباراتي. يمكن اليوم توليد مقطع فيديو لأي مسؤول يقول ما لم يقله. يمكن توليد تسجيل صوتي لأي شخص بأي لغة وبصوته تماماً.

في عالم تتسارع فيه هذه التقنيات، ستصبح التمييز بين الحقيقي والمزيف تحدياً وجودياً للمجتمعات الديمقراطية. وستكون الاستخبارات في قلب هذا الصراع: كيف تكشف التضليل؟ وكيف تنشره في الوقت نفسه؟

٢٠ - ٤ حروب الكم: المستقبل القريب

على الأفق البعيد القريب: الحوسبة الكمومية. إذا تمكنت إحدى الدول من بناء كمبيوتر كمومي عملي، فستكون قادرة — من حيث المبدأ — على كسر كل أنظمة التشفير الحالية المستخدمة في الاتصالات والمعاملات البنكية والمنظومات العسكرية في لحظات. سيكون ذلك أضخم ثورة استخباراتية منذ اختراع التلغراف.

تُضخ الآن مليارات الدولارات في مختبرات حول العالم — أمريكا والصين وروسيا والاتحاد الأوروبي — في سباق محموم للوصول أولاً. الفائز في هذا السباق سيمتلك مفاتيح معظم أسرار العالم.

خاتمة: في عالم لا يعرف الأسرار

انتهى بنا المطاف في هذه الرحلة الطويلة عبر أربعة آلاف سنة من تاريخ الاستخبارات، من جواسيس روما على الطرق الترابية إلى قراصنة الكمبيوتر في الغرف المظلمة. ما الذي تعلمناه؟

تعلمنا أن الرغبة في معرفة ما لا يريد الآخر كشفه هي رغبة إنسانية عميقة لا تزول. من الفرعون إلى الرئيس الأمريكي، من الإمبراطور الروماني إلى الرئيس الصيني — كل من حكم امتد بصره إلى ما وراء الأفق وأرسل عيونه لترى ما لا تراه عيناه.

تعلمنا أيضاً أن الاستخبارات أداة ذات حدين. يمكنها إنقاذ الدول — كما فعلت بلتشلي بارك في الحرب العالمية الثانية — ويمكنها تدميرها بالداخل — كما فعل رجال كامبريدج الخمسة بثقة بريطانيا بنفسها. يمكنها حماية الديمقراطيات ويمكنها تقويضها.

والدرس الأعمق ربما هو هذا: لا توجد قوة عسكرية أو اقتصادية كافية لتعويض إخفاق استخباراتي. بيرل هاربر علّمتنا ذلك. وهجمات الحادي عشر من سبتمبر علّمتنا إياه مجدداً. الدول التي تتجاهل الاستخبارات تدفع ثمناً مكلفاً.

لكن ثمة سؤال أخير يطرح نفسه في عالمنا الرقمي: ماذا يبقى من الخصوصية، ومن الكرامة الإنسانية، حين تعرف الدولة كل شيء عن كل مواطن؟ حين لا توجد مكالمة لا تُسجَّل، ولا رسالة لا تُقرأ، ولا خطوة لا تُتبَّع؟

في النهاية، الاستخبارات انعكاس للعالم الذي نعيشه: في عالم من الدول المتنافسة وغير الموثوقة ببعضها، ستكون الاستخبارات ضرورة. وفي عالم يكفل الكرامة والحرية الفردية، يجب أن تكون لهذه الضرورة حدود.

أين تقع هذه الحدود؟ هذا هو السؤال الذي لم تجب عنه أربعة آلاف سنة من التاريخ، ولن تجيب عنه صفحات هذا الكتاب. الإجابة يصنعها كل مجتمع من الداخل، في صراع متجدد بين الأمن والحرية — صراع لن ينتهي طالما وُجد البشر.

*** *** ***

"في الظل يُصنع التاريخ، وفي الضوء يُروى"

المراجع والمصادر

فيما يلي قائمة بأبرز المراجع والمصادر التي استُعين بها في إعداد هذا الكتاب:

أولاً: المراجع باللغة العربية

١. الإمام، محمد كامل. "تاريخ الاستخبارات في العالم الإسلامي". دار الفكر العربي، القاهرة، 2010.

٢. عبد المنعم، عبد الحميد. "أجهزة المخابرات العالمية". مكتبة مدبولي، القاهرة، 2015.

٣. الزهراني، عبد الله. "الاستخبارات في الحروب الحديثة". مركز الدراسات الاستراتيجية، الرياض، 2018.

ثانياً: المراجع باللغة الإنجليزية

4. Weiner, Tim. Legacy of Ashes: The History of the CIA. Anchor Books, 2007.

5. Haynes, John Earl & Klehr, Harvey. Spies: The Rise and Fall of the KGB in America. Yale University Press, 2009.

6. Andrew, Christopher. The Secret World: A History of Intelligence. Yale University Press, 2018.

7. Richelson, Jeffrey T. A Century of Spies: Intelligence in the Twentieth Century. Oxford University Press, 1995.

8. Urban, Mark. The Alchemy of Air. 2009.

9. Kaplan, Fred. Dark Territory: The Secret History of Cyber War. Simon & Schuster, 2016.

10. Bamford, James. The Shadow Factory: The Ultra-Secret NSA. Doubleday, 2008.

ثالثاً: وثائق رُفعت عنها السرية

- وثائق CREST — نظام CIA لاسترجاع السجلات السرية المُفرج عنها.
- وثائق مشروع فينونا — اعتراضات الاتصالات السوفيتية المُفرج عنها.
- وثائق لجنة تشيرش — تحقيقات الكونغرس الأمريكي في انتهاكات الـ CIA (1975).
- وثائق GCHQ البريطانية المُفرج عنها عبر الأرشيف الوطني البريطاني.